مسودّات الشعراء

أى صديقى العزيز

إن هذا الذى قلته لى فى خطابك قد سرنى كثيراً . أتقول إنك احتفظت بمسودة قصيدة لصديقنا الشاعر كان قد نسيها عندك ، فاستأذنته فى الاحتفاظ بها فأذن لك ، فأنت من وقت لآخر تنظر فيها !

ثق يا صديقى أن صديقنا الشاعر هذا قد آثرك بشئ ثمين حقاً لا يؤثر به الشعراء أصدقاءهم . لأن المسودة كما تعلم هى عرق الشاعر الذى لا يحب أن يشمه غيره ! هى الوثيقة التى تثبت أنه لم يطلع على الناس بهذا الشعر إلا بعد كثير من المصابرة والمداورة ، على حين يحب الشاعر أن يبهر الناس شعرُه مطبوعاً كأنه جاءه وحياً من السماء فتلقاه وأذاعه ! ولقد كنت أحب أن أذكر لك الطاهى الذى لا يريد أن يدخل الناس عليه مطبخه لأنه يخشى أن تقل شهيتهم للطعام إذا هم رأوه يصنعه ، لولا أنى أخشى أن تتهمنى بقلة الذوق فى هذا المثل . . . على أنى أعلم أن صديقنا الشاعر هذا طيب القلب سمح النفس لا يهمه أن يعلم الناس أنه ملهم ، وأن هذا الذى راع الناس ليس إلا عفو خاطره . . . بل لعل هذا الصديق الطيب القلب يحب أن يرى أصدقاءه كيف يتعثر وكيف يرفضّ جبينه بالعرق وهو يجاهد ويكابد ، وإنه ليطمع دائما فى أن يرى الناس مشفقين عليه مترحمين له ماسحين بأيديهم على جبينه ! هكذا عرفناه يظهر من باطن أمره أكثر مما يظهر غيره من ظاهره... مفرطاً دائماً فى كل شئ ، ساخراً دائما من كل شئ ، حتى من نفسه فى كثير من الأحيان ... ألا تذكر كيف كان يلقانا فى بيته فنحس بعد قليل من الجلوس إليه أننا جزء من بيت صديقنا هذا !

فلا عجب إذن أن ينسى عندك مسودة قصيدته ، بل لعله لم ينسها ولكن رآها قبل قيامه فتثاقل عن أخذها بأساً منها أو سخرية بها ، أو لعله

تركها لك عامداً لتقرأها فتذكر القصيدة وتحدثه عنها إذا رأيته ... وأيًّا ما كان الأمر فان الذى أردت أن أتحدث به إليك غير هذا . إنما أردت أن أسألك أأردت من النظر فى هذه المسودة أن تتسلى وتضحك من عبث الشعراء ، أم أردت حقا أن تتخذها معرضاً من معارض النفس الانسانية فى بعض حالاتها ؟ وهل قارنت بينها وبين القصيدة المطبوعة منها إن كانت طبعت ؟ فلعلك رأيت كيف تنتهى قصيدة من القصائد أحياناً إلى صورة مخالفة لما كان فى مسودتها ! ولعلك رأيت كيف تتغير الكلمات ، وتتبدل الأفكار ، ويختلف الشعور ، وتتشكل الصور ! ولعلك وقفت على بعض هذا الصراع الفنى الذى ينتهى بالشاعر إلى النجاح أحياناً وإلى الاخفاق أحياناً أخرى ! أو لعلك رأيت صنعة هؤلاء الشعراء وما فيها من جهد واحتيال !

وقلت لى فى خطابك — وما أصدق ما قلت — : «ولو أطلعنا شعراؤنا على مسودات قصائدهم لقدموا إلينا بذلك خدمة جليلة ونفعاً عظيما . لأنها فى الحقيقة المرآة الأولى الصادقة لحالاتهم النفسية وتصوراتهم الشعورية ... فهذه الكلمات التى شطبت بأيدى الشعراء فى مسوداتهم كانت خليقة أن تعيش وأن تظهر لولا غرور بعض هؤلاء الشعراء وأنانيتهم .» نعم يا صديقى ! فليت لنا هذا الشاعر الذى يكتب لنا مع قصيدته كيف كتبها ، وما هى الفكر التى تواردت عليه أثناء كتابتها ، وأيها كان أولا وأيها كان أخيراً ، ولماذا عدل بهذا عن ذاك ، وغير هذا مما يعرفه الشعراء حين يكتبون قصائدهم ... وما دام الشعراء أحبوا أن يقفوا الناس على مشاعرهم المختلفة ، وتجاريبهم الصادقة ، فلماذا لا يرضون لأنفسهم أن تنشر مسوداتهم والمسودة فى الحقيقة مظهر التجربة النفسية الحقة التى قام بها الشاعر ؟ أم تراهم يمزقون هذه المسودات أو يسترونها لأن الشاعر ككل إنسان فى المجتمع لابد له من الظهور بين الناس مصقولا مهذباً ؟ لاأدرى ! ولكنهم إن نشروا هذه المسودات ، فستكون هى الأخرى هيا كل فنية خليقة بالنظر والتأمل فيما أعتقد ، وقد تثير فى النفس ما لا تثيره القصائد المطبوعة !

أنظر ، ألا ترى فى هذه المسودة ميداناً نزلت إليه كلمات كثيرة ، فأيها بعضها فقد قدر له النجاح والنجاة ، على حين صار البعض الآخر أشلاء متناثرة : فهذه الكلمة تراها مطعونة بسهم ، وتلك قد تكسرت فيها النصال على النصال كما يقول المتنبى ، وهذه قد طمسها الشاعر فى بركة صغيرة من الحبر ، ألا تثير

مثل هذه اللوحة فينا مشاعر كثيرة وتدلنا على شخصية الشاعر وحالته حين كان يكتبها ؟

فمسودة صديقنا لابد أن تكون قد أثارت فى نفسك الشئ الكثير . فخبرنى فى أى الصور كان يبدو لك صديقنا ؟ أرأيت إلى كثرة الكلمات المشطوبة عنده ؟ ربما كان بعضها يستحق ما نزل به ، ولكن ربما كان بعضها الآخر شطبه الشاعر بالرغم عنه ! وأنت تعلم أن الشعراء يضطرون إلى ذلك لقيود الشعر التى ترهقهم وتضطرهم فى كثير من الأحيان إلى الخروج عن طبائعهم ، فيقولون ما لم يكن فى نيتهم أن يقولوا ، ويتركون ما أرادوا أن يقولوا . وقد تذكر قول هذا الشاعر العربى الذى سئل فى شعره فقال : «ما أرضاه منه لا يأتينى ، وما يأتينى لا أرضاه . » فلعل فى هذه المسودة ما كان يرضاه شاعرنا لولا أنه لم يأته ، ولعل فيها كذلك ما جاءه ولم يرضه ...

فان وجدت فى النظر إلى مسودة صديقنا هذا لذة ونفعاً فاطلب إليه غيرها . ومن حسن الحظ أن كثيراً من الشعراء صديق لك ، فتستطيع أن تجمع بعض هذه المسودات وتكوّن منها مجموعة لمثل هذه الدراسة اللطيفة الطريفة ... ضع مسودة القصيدة أمامها ، وانظر إلى ما اختاره الشاعر منها وما لم يختره ، ومعانيه هنا ومعانيه هناك ، وحبذا لو كان عندك أكثر من مسودة للقصيدة الواحدة كما يحدث فى كثير من الأحيان ، فتستطيع أن تؤرخ لهذه القصيدة تاريخاً أدبياً على نحو جديد ، فترى الحالات التى مرت بها ألفاظها ومعانيها ، وترى ما عسى أن تدل عليه من شخصية الشاعر ...

ولا شك أن كثيراً من الناس يحبون أن يروا مثل هذه المجموعة لأننا نحب دائماً أن نرى تجارب بعضنا بما فيها من مظاهر النجاح ومظاهر الاخفاق أيضاً ... نحب أن نرى بعض المعانى المبتورة أو الألفاظ المطموسة . فانها قد تثير فى نفوسنا شيئاً من التطلع فنشفق أحياناً ونشمت ونضحك أحياناً أخرى ... على أن محاولتك أنت لمعرفة أصول هذه الكلمات المطموسة أو المشطوبة وتخمينك وظنونك تجربة هى الأخرى يحب الناس أن يروها ! فهيا إذن ياصديقى واطلب من أصدقائنا الشعراء بعض مسودات قصائدهم من أجل هذه الدراسة فمن يدرى !

تأمل يا صديقى جيداً هذا التغيير وهذا العبث : فهذا الشاعر يخط فى مسودته صورة من الصور ، وذاك يرسم خطوطاً تتجه هنا وهناك دون معنى ،

ثم تمثل هذا الشاعر وهو يخط هذا الخطوط ، ويعبث مثل هذا العبث ، فقد تقول إن هذا نتيجة إخفاقه فيما طلب من معنى أو لفظ فصارت يده تصنع شيئا وعقله يجرى وراء شئ آخر ، أو قد تقول ربما أراد أن يعوض شعوراً بنقص فأرادت يده أن تحقق ما لم تحققه شاعريته ! من يدرى ؟

وقد ترى كلمات مكتوبة بلهفة على حين ترى غيرها ابطأ فى كتابتها ... وقد تعرف سر هذا . فان اللمحة الشعرية تجعل يد الكاتب تكتب بسرعة فائقة على حين يبطئ القلم ويثقل إن أبطأ الذهن وثقل ...

وقد ترى كلمات متناثرة كتبها الشاعر على مسودته ليعود إليها ، فأما بعضها فأتيح له الظهور والاستقرار فأصبح الناس يروونه ، لأنه انسجم مع غيره من الألفاظ وزناً ومعنى ، وبعضها الآخر بقى فى المسودة . فلتنظر فيه فقد يستحق منا شيئاً من العطف والاشفاق ... وإن لشخصياتنا وسائر أعمالنا لمسودات ليتها مكتوبة ! إذن لعرفنا حقيقة علاقاتنا ولمسنا الخطوط التى تربطنا بعضنا ببعض ! لكنا لا نظهر فى المجتمع إلا بمشاعر مصنوعة وشخصيات مطبوعة ! ومع ذلك فنحن إذا حذقنا علم المسودات المكتوبة فقد نستطيع بعد ذلك أن ندرس المسودات الشفهية عن أحاديث الناس وحركاتهم .

وهبك يا صديقى لا تقدر على استبطان هذا وغيره ، فاجمع هذه المسودات وانشرها كما هى دون تعليق منك . فاننا نحب أن نراها كما هى لنأخذ لأنفسنا منها ما نحب أو ما يهدينا إليه ذكاؤنا ، أو على الأقل فانشرها ليرى كل منا نفسه فى جميع حالاتها حين تجاهد فى الوصول إلى شئ فنرى النفس بين قوتها وضعفها . ونحن فى حاجة دائما إلى إثارة الاشفاق فى قلوبنا حو هؤلاء الذين يعانون ما يعانيه الشعراء والكتاب وأصحاب الفنون !

ومن يدرى يا صديقى ! فأنت بنشرك لهذه المسودات قد تقدم شيئاً حسياً إلى الشعراء أنفسهم . فلا أظن هؤلاء الشعراء يتنكرون لمسوداتهم لأنهم تركوها إلى غيرها . وإنى لتحضرنى هنا قصة لأبى تمام ، هذا الشاعر الذى طالما حدثتك عنه . فقد وقع له مرة بيت من الشعر ردئ فى قصيدة كل أبياتها حسن جيد ، فقال له صديقه فى ذلك فأجابه : أتزال أعرف به منى ؟ إن أشعارنا كأولادنا ، منهم النابه ومنهم الضعيف . فالأب يعجب بالنابه ولا يخلو قلبه من حب الضعيف ... أرأيت يا صديقى إلى هذا الشاعر الكبير القلب كيف

لم يتنكر لبيت ضعيف وقع بين إخوة له أقوياء ؟ لا أدرى كيف انتقل هذا البيت الضعيف من مسودة أبى تمام إلى قرطاسه الذى بيض فيه القصيدة . فأنت تعرف أن الحظ له دخل فى هذا أيضاً . ومن لنا بمسودة أبى تمام تلك فنرى ماذا كان يصنع هذا الشاعر المصنِّع ، أو لنرى على الأقل كيف وثب مثل هذا البيت من مسودته وكان خليقاً أن يظل بها !

لكن أبا تمام كان فيه الشئ الكثير من صفات صاحبنا لا يتحرج من شئ ولا يقف عند حد فى شئ ... ولعل اتجاهه فى الشعر هذه الوجهة التى اتجهها لم يكن إلا نتيجة سماحته وعدم اكتراثه . بل لم يكن إلا نتيجة سخريته ! نعم سخريته التى جعلته لا يقف عند حد فى الاستعارة والمعنى ، وكأنما كان يقول شعره ليسخر من عقول الناس حين يرونه يأتيهم بما لم ينتظروا ... من الجديد فى ثوب القديم ومن القديم فى ثوب الجديد ، وكيف يجتمع أو يمكن أن يجتمع فى كل معنى يخطر بالذهن الضدان . وهكذا كانت سخرية هذا الشاعر وسماحته ، مع ذكائه ورأيه ، حافزاً له على تجاوز كل مألوف فى الشعر ليشبع هذه النزعة فى نفسه أو تلك الصفة فى فطرته . أليس عجيباً أن يختار هذا الشاعر ديوان الحماسة فيجىء هذا الاختيار فى الشعر المطبوع وشعره هو شعر مصنوع ! وكان يوماً يختار من أشعار المحدثين فنظر إلى ديوان ابن أبى عيينة ورمى به وقال : هذا كله مختار . وشعر بن أبى عيينة شعر سهل مطبوع ، حتى يقال إنه يخرج شعره كما يخرج نفسه ! بمَ نعلل هذه الظاهرة إذن إن لم تكن هى الأخرى حلقة من حلقة سماحته وسخريته ؟ وكم لهذه السماحة ولتلك السخرية من مظاهر فى حياة هذا الشاعر وفنه !

ولكنى لم أرد أن أحدثك عن أبى تمام ، وإنما ساقنى إليه هذا الخبر الذى ذكرته لك من إثباته بيتاً ضعيفاً فى قصيدة كل أبياتها حسن جيد ... ليس لهذا عندى من تفسير إلا أن أرد ذلك إلى هذه الخصلة التى حدثتك عنها ...

ولو قد أتيح لنا أن نرى مسودة أبى تمام إذن لرأينا كيف عبّر هذا الشاعر عن نفسه أولا ، ثم كيف عبّر عن فنه الذى عشقه وتحدى به ثانيا . ولابد أنه غيّر كثيراً .

محمد عبده عزام